

بسم الله الرحمن الرحيم
الشيخ محمد جميل العقاد
نظرة فنية في شعره

الباحث: محمد عدنان كاتي

تعود معرفتي بالشيخ العقاد إلى أكثر من خمسين سنة خلت، ومنه سمعت أول بيت من الشعر، ولهذا قصة طريفة اسمحوالي أن أوجزها لكم في هذه السطور.

يومها كنت ما أزال طفلاً أتلقى القرآن الكريم في أحد كتاتيب الحي، كان ضجيج الأطفال يملأ أذني وأنا أردد السورة التي يجب علي أن أحفظها ويسمعها الشيخ قبل ظهر هذا اليوم، فجأة قرع الشيخ المنضدة الخشبية أمامه بعصاه الطويلة، وأمرنا بالسكوت، انتهت فإذا رجل طويل القامة عريض المنكبين، يرتدي جبة طويلة، ويغطي رأسه بعمامة بيضاء لفت بإتقان فوق طربوش أحمر يدلف من الباب، فيحجب النور الضئيل المنسرب إلى المكتب من خلال هذا المنفذ الوحيد، ويدخل وراءه رجل أحسبه أصغر حجماً منه، ونهض كل من في المكتب ليؤدي واجب التحية للضيف الزائر، وليردوا السلام بصوت واحد، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم عاد الجميع إلى الجلوس بأوامر صارمة من الشيخ، ختمها بوجوب التزام الصمت والسكوت مع التهديد والوعيد لكل من تسول له نفسه فتح فمه أثناء وجود الضيف، جلس الرجلان إلى شيخنا يتحدثان بصوت خفيض تظهر منه علائم الود والسرور نهض شيخنا بعدها ليقول: "اسمعوا يا أولاد هذا فضيلة الشيخ جميل العقاد شرفنا زائراً ويريد أن يتحدث إليكم فاسمعوا وعوا"، وقف الشيخ بقامته الفارعة وراح يتحدث مشيراً بيديه حديثاً طويلاً ما وعيت منه إلا أنه يجب علينا أن نحب الله ورسوله ونطيع والدينا وأنهى الشيخ الزائر حديثه بالتعبير عن رغبته في أن يعلمنا نشيداً جميلاً سنحبه ونكرره دائماً، والتفت إلى مرافقه يأمره بكتابة النشيد على السبورة، خطَّ الرجل على السبورة خطوطاً جميلة متناسقة، لم أفهمها لأنني كنت يومها لا أحسن القراءة والكتابة، ثم وضع فوق هذه الخطوط علامات ملونة زاهية، وتقدم الشيخ الزائر مرة ثانية لينشد أمامنا بألحان جميلة فاتحاً كفيه رافعاً يديه نحو السماء مرة ومشيراً بهما إلى السبورة مرة أخرى

قد لجأنا إليك
المعول عليك

يا علام الغيوب
فاصرفن الكروب

وهكذا راح الشيخ ينشد لنا النشيد، ويكرره ونحن نعيده لنحفظه، فإذا وصل
إلى المقطع الأخير

طالب للرشاد
في الحساب لديك

ذا جميل العقاد
عاشق للسداد

أشار بكلتا يديه إلى صدره وكأنه يريد أن يقول لنا: "أنا جميل العقاد".

أجل هذا أول شعر وعيته في حياتي، ثم أيفعت وكان لقائي الثاني بالشيخ في
دروسه الرمضانية في الجامع الأموي الكبير وكنت أجد في حديثه من العذوبة والحلاوة
ما جعلني أنجذب إليه وأحرص على حضور مجالسه، ربما كان ذلك لما كان يولياني - وأنا
الفتى الصغير - من الاهتمام والحب ما كنت أحسب أنه يخصني بهما دون زملائي، لذا
كنت أجلس أمامه، وأنا متيقظ ألتقط منه كل ما يقول، وأسجل على مذكري الصغيرة
كل ما أسمع منه من الآيات والأحاديث والأشعار والأناشيد.

أما سعادتني الحقيقية فكانت ساعة يناديني الشيخ بلهجة المصرية المحببة لأردد
بحضوره ما حفظته منه

- تعال يا كاتبي! ... تعال يا جدع.

وأسرع لأقف جانب كرسيه، ويلتفت الشيخ نحوي فيلحظ صغر سني، وقصر
قامتي فيأمرني أن أصعد وأقف بجانبه على الكرسي

- هيا يا جدع! ... أصعد هنا...

فأصعد وأنظر إلى جموع الحاضرين فيداخلي شعور بالرهبة يخالطه شيء من
زهو وإعجاب ثم أردد ما حفظته منه، أمام الحضور وسط تشجيع الأستاذ ومباركته.

ذكريات سعادة ومتعة لا تكاد تغادر مخيلتي إلى يومنا هذا.

نعم...! أحببت الأستاذ عقاد، أدهشني حديثه وأعجبني أسلوبه في الوعظ والإرشاد وطريقته في إلقاء الشعر، ومنذ ذلك اليوم صممت على جمع شعره وحفظ الكثير منه إلى أن وفقني الله بجمع هذا الشعر ودراسته دراسة أدبية وإخراجه للناس في كتاب (ديوان الشيخ محمد جميل العقاد، حياته وشعره) لتعمم فائدته.

وقبل الحديث عن شعر الشيخ العقاد لا بد لي من الإشارة إلى أن الشيخ كان فقيه داعية واعظاً، وأن ما جاء على لسانه من الشعر كان موظفاً في خدمة دعوته تلك، ومن هنا أجدني مدفوعاً للقول إنه من واجبنا أن ننظر إلى شعر الرجل في هذا الإطار ونظلم الرجل إذا حاولنا مقارنته بشعراء عصره أو غيرهم من الشعراء.

يتسرع بعض النقاد فيطلقون أحكاماً عامة على شعر العلماء والفقهاء والسيوخ، فيقولون: إن شعرهم نظم لا صنعة فيه ولا فن، وإن المعارف والحقائق العلمية تتصارع في نفوسهم مع وساوس الشعر وخيالاته فيقدمون العلم على الشعر، فيغدو شعرهم نظماً لا روح فيه ولا فن.

ولكي لا نقع في خطأ تعميم الأحكام وإطلاقها على شعر شاعرنا العقاد، لا بد لي من الوقوف على معنى الشعر ومقوماته لنرى حظ الشيخ من هذه المقومات ونصل إلى الحكم عليه حكماً بعيداً عن التسرع والتعميم والهوى، وإذا علمنا أن الشعر يعني العلم والإدراك والفتنة، وأنه أشبه بعربة يجرها جوادان قويان هما العاطفة والخيال ويقودها حوذي ماهر هو العقل كما عرفه قدماء اليونان، استطعنا تحديد مقوماته ودعائمه التي لا يمكن الاستغناء عن أي واحدة منها، وهي:

١. الأفكار والمعاني.

٢. الصياغة والأسلوب.

٣. العاطفة.

٤. الخيال.

٥. الموسيقى.

ونتساءل إلى أي مدى نجح شاعرنا الشيخ في امتلاك هذه الدعائم والمقومات؟
وللجواب على هذا التساؤل أجدني مضطراً للفصل بين هذه المقومات والوقوف
عند كل واحدة منها وقفة متأنية لنرى حظ الشاعر من كل منها.

وهذا الفصل لتسهيل دراستها وإبراز مقومات الجمال في شعر الرجل، ولا يعني في
حال من الأحوال أنه يمكننا تمييزها عن بعضها في النظرة الشاملة للشعر.

أولاً: الأفكار والمعاني.

عاش شاعرنا الشيخ العقاد عصرًا مضطرباً بالأحداث والتغيرات، وعمل معلماً
وواعظاً وخطيباً، وكان لهذا كله أثر واضح في تنوع الموضوعات والمعاني الشعرية التي
تناولها في شعره، ويمكننا تقسيم أغراضه ومعانيه إلى قسمين
الأول: المعاني والأغراض التقليدية كالفرح والحماسة والمديح والرثاء والهجاء والوصف
والتهماني والإخوانيات بالإضافة إلى المعاني الدينية التي طغت على معظم ما ترك لنا من
الأشعار.

الثاني: المعاني والأغراض المستحدثة كالمعاني القومية والوطنية والاجتماعية، وهو
يصدر في أغراضه كلها عن معين واحد وهو التزامه بمبادئ الشريعة الإسلامية
وأخلاقها وقيمها وقد فصلت القول في هذه المعاني في كتابي الذي أشرت إليه.

ثانياً: الأسلوب.

اهتم العقاد بالمواءمة بين معانيه وألفاظه لأنه كان يلقي جل أشعاره على
المستمعين في المساجد والمحافل والندوات، فقد كانت له في كل مناسبة قصيدة يلقيها
على جمهوره، فهو لذلك ينثر كنانته من المفردات والألفاظ فيتخير أحسنها وأقربها إلى
أذن المستمع وأكثرها انسجاماً مع المعنى الذي يريد، وهذا ما يسميه النقاد (التدوق)

وسأقف عند شاهد واحد نتبين من خلاله شدة اعتناء الشاعر بتخير الألفاظ
وملاءمتها للمعاني المرادة، ففي قصيدته (يا عالم الإسلام)، يقول:

تبين لك الأيام أم تتجمجم لعمرك ما ناب الجزائر يفحم
وتستنطق الأحوال في كل حادث وجهلك بالأيام أدهى وأعظم

وهاكم البيت الثاني كما ورد في مسودته

و(تستلهم) الأحوال في كل(مرة) وجهلك بالأيام (أشد) وأعظم

نلاحظ كيف استبدل الشاعر بـ (تستلهم) (نستنطق) وبلطفة (مرة) (حادث) في
الشطر الأول وبلطفة (أشد) (أدهى) في الشطر الثاني.

ونتساءل ما الذي حققه الشاعر باستبدال هذه الألفاظ مع أنها كانت منسجمة
مع الوزن والمعنى المراد

لقد كان الشاعر يريد مواجهة جماهيره بصوته الجهوري ويستحثها على الوقوف
مع إخوانها في الجزائر، فما وجد في هذه الألفاظ الرقيقة ذات الإيحاء المحدود ما
يناسب موقفه، ولننظر إلى ما توحىه كلمتي (حادث) و(أدهى) بحروفيهما ومعانيهما من
المصائب والخطوب العظيمة لنرى كم وفق الشاعر إلى اللفظ المناسب في المكان
المناسب، وسأدع لذوقكم الرفيع الحكم على الألفاظ (تبين) (تتجمجم) (ناب) (يفحم)
وكم هي ملائمة للمعاني المراد.

وهذا الحرص على التخيير والانتقاء نجده في تراكيب الشاعر يحكمها طولاً وقصراً
وخبراً وإنشاءً بما يتلاءم والموضوع المطروق

ثالثاً: العاطفة.

امتازت عاطفة الشيخ العقاد بقوتها وحرارتها ، ولعل أوضح مظاهر القوة فيها
تأثير شعره في نفس السامع والقارئ، فما يسمع شعره سامع أو يقرؤه قارئاً إلا ثارت
نفسه وهاجت مشاعره، وعواطف الشاعر كلها صحيحة غير مريضة، والعواطف
الصحيحة هي التي تدعو لأن تكون حياتنا أسعد وأقوى، وهذه العاطفة قلما نجدها في
أدبنا العربي الذي يغلب عليه الإفراط في المديح فتضعف عاطفته، أو في الغزل حيث

تذوب العواطف رقة في الحب والهيام
وهذا النوع من العواطف سئمها العربي لأنها تكون في كثير من الأحيان مريضة كاذبة

وسأقف عند مثالين من العواطف عند شيخنا العقاد، أحدهما يمثل عاطفة
الحب، هذه العاطفة القوية التي يكاد يشترك فيها كل الشعراء، لكن الحب عند شاعرنا
يختلف عما تعارف عليه الناس في الحب، إنه حب تشترك فيه الأمة، ويجمع عليه
الناس، لأنه حب لعظيم هذه الأمة وقائدها، يتغلغل في أعماقهم، ويتربع على عرش
قلوبهم جميعاً، يقول:

ليرتق الحب في عرش القلوب فما	أسماه من ملك في عرشه صعدا
فهو المرابي به تسمو النفوس علا	وهو الكريم به تسخو الأكف يدا
وهو المفجر ينبع الشعور من الـ	قلوب منسجماً بالشعر مضطردا
يصفيه للروح إخلاص وتزكية	فيعذب الشعر سلسالاً لمن وردا
وهل كصدق شعوري حين أبعثه	للمصطفى راجياً من فضله مددا
وما ادعت همتي في المدح مقدرة	لكنني أدعي حباً له أبدا
وتدعي النفس إن عي الكلام بها	واستمنحته أتاها رزقها رغدا
فإنه رحمة للناس مرسله	به غدا الغي في هذا الوري رشدا

أما المثال الآخر فهو لعاطفة الحزن والأسى التي عمت الأمة إثر نكبة عام
١٩٤٨م، وتقسيم فلسطين واحتلال المدينة المقدسة، عاطفة يسيطر عليها الألم
والحزن ولكنها صحيحة أيضاً، لأنها تنبه الأمة إلى واقعها المؤلم، وتدعو إلى الثورة عليه،
صادقة لأنها تنبع من أعماق الشاعر الذي يحس آلام أمته أكثر من غيره، وهي عاطفة
جماعية عامة لأن الأمة كلها تشترك فيها. يقول:

حطموا الأقداح أسكتوا الرنين

إنه أنين

لا تخالوا الراح

تسعد الحزين

ليس للأنس إلى القلب سبيل

فدعوا الأحزان منا تشتفي

صدفت عن حظها نفس العليل

فدعوها في أساها تختفي

أيها النوم

قدسكم قد راح

ملككم مباح

في هوى الإسلام

قدموا الأرواح

ولعلنا رأينا في هذين المثالين قوة العاطفة وصدقها وتأثيرها المباشر في النفوس.

رابعاً: الخيال.

وقد نرى حظ الشيخ فيه أقل من حظه في العاطفة والأسلوب والمعاني ومرد ذلك في رأينا إلى أن الشاعر كان يخاطب الجماهير بقصائده، فهو بحاجة إلى أسلوب جزل وعواطف قوية متدفقة تؤثر في وجدان المستمع أكثر مما يؤثر الخيال الذي هو بحاجة إلى قراءة متأنية وغوص وراء الصور البعيدة، لكنني سأنقل لكم هذه اللوحة الجميلة عن القرآن الكريم، المضاءة بنور اليقين، والمزدانة بأطياف الشمس، لنرى فيها ذلك الطبيب الشاهر مبضعه، يريد استئصال أمراض النفس وعللها:

وجلاء الشك أم نور اليقين

ذاك نور الله هادي المدلجين

قد تبدت فتنة لناظرين

أو ضياء الشمس في جلوتها

ذلك المخلوق من ماء وطين

أو صفاء الروح يحيي سرها

علل الأحقاد في رفق ولين

أو طبيب سل في مبضعه

إنه تنزيل رب العالمين

بل كتاب الله فاستوصوا به

صور حلق بها الشاعر في خياله مع أنه لم يخرج عما ألفه الناس في وصف القرآن
الكريم

خامساً: الموسيقى.

من خلال تتبعنا لشعر الشيخ نلحظ حسن استغلاله لموسيقا الشعر مما جعل
شعره (سينفونية) تعج بأنواع الأنغام والألحان، فتعلوا وتضج مع استنهاض الهمم
لمواجهة الأعداء ومقارعتهم، وترق وتلين في منادمة الإخوان والبكاء على الأحباب
والوصف، تتسارع ويعلو نبضها مع قرع طبول الحرب وتهداً وتستطيل في المدائح
النبوية ومعالجة الموضوعات الفكرية، ولنستمع إليه يحدثنا عن العيد ومعناه
الحقيقي الذي يراه في مجاهدة الأعداء ومقاومة المحتلين، مستمتعين بهذه الموسيقى
الهادئة هدوء الموضوع الذي يبين معنى العيد وأهمية الجهاد في حياة المسلمين

كان الصيام على الذنوب معاولا	عيد الصيام لأنك أكرم نائلا
تدع اليباب القفر منك خمائلا	ياعيد أرسل من عبيرك نفحة
وانشر على الإسلام نورك كاملا	عد في ربوع المسلمين مناهاً
حتى يعود الحق أبلج مائلا	فلعل قومي ينهضون بدينهم
عاش الفتى يحيي العرين مصاولا	إن الجهاد عليه يبني مجدنا
في المشركين جميعهم ومناضلا	إن الرسول قضى الحياة مجاهداً

ولنستمع الآن إلى هذه الأبيات التي يدعو فيها الشاعر إخوانه السوريين لبناء
جيش قوي يقاومون به المحتل ويطردونه من ديارهم

يرمي العدو فلا يرد	الحق بالجيش القوي
بالجيش نرغم من حسد	الجيش عزّ كياننا
وانهض سريعاً ولتسد	يأيها السوري قم
فرض الدخول إلى البد	سحقاً وبعداً للذي

فدعوا البلاد ترحلوا من غير ما شرط وقد
وإذا عصيتم أمرنا فالله لا يبقي أحد

ألا نحس أننا أمام فرقة موسيقية من فرق الجيش بآلاتها النحاسية الصاخبة
وأبواقها الكبيرة، وطبولها المتعددة وهي تعزف (مارشاً) عسكرياً حقيقياً بإيقاعه
الصاخب المتسارع وموسيقاه الحادة القوية

وأخيراً:

أجدني مدفوعاً إلى القول دون محاباة أوتسرع أو انسياق خلف عاطفة: "إن شاعرنا
العقاد قد أجاد في تخير معانيه، وأحسن في تذوق ألفاظه وتراكيبه التي ألبسها ثوباً من
العواطف القوية الصحيحة، ثم أخرجها على ألحان موسيقاه المنسجمة مع المعاني
والألفاظ والتراكيب مبتعداً عن الإغراق في الخيال الذي قد يشغله عن إيصال معانيه
إلى جمهوره، ويصرفه عن إحكام تأثيره في النفوس